على هامش النقد

الأدب «المهموس»
والأدب الصادق
للأستاذ سيد قطب

أرجو أن تكون هذه الكلمة هى الكلمة الأخيرة عن « الأدب المهموس » . وبرنامجها يتناول ثلاثة أغراض :

فأما الغرض الأول : فهو أن الأدب المصرى لم يخل من صور من ذلك اللون المحبب إلى الأستاذ « مندور » ، وهى صور منوعة وأكثر سلامة من النماذج التى استهوته هناك . ولكن مجلته فيما يصدر من الأحكام ، وعدم انفساح الوقت أمامه ليدرس قبل أن يحكم ، وتشيعه الواضح المفهوم لشعراء الهجر ... هذه الأسباب جميعها جعلته ينادى بأن الشعر المصرى متخلف قروناً عن شعر الهجر ، وأنه شعر خطابى لا يستهويه

وأما الغرض الثانى : فهو أن هذا اللون من الأدب ، ليس هو اللون الوحيد الذى يستحق الإعجاب ، وقد لا يكون أفضل الألوان ؛ فالتشيع له إلى أقصى الحدود ، وإنكار ما عداه من ألوان الأدب الأخرى ، مسألة « مزاج » خاص ، له دوافعه الخاصة ، وليس حكماً أدبياً يرتكن إليه النقد الفنى

وأما الغرض الثالث : فهو الحديث عن « النماذج البشرية » الحبيبة إلى الأستاذ مندور وعلاقتها فى « مزاجه » بحكاية « الأدب المهموس » من بعض النواحى . وهو ما أرجو أن يتفسح له المجال فى هذا المقال

* * *

ليس من الضرورى أن يستتبع الهمسُ الأسى ، وليس من الضرورى أن يكون الأسى متهالكا ليكون حبيباً إلى النفوس . ولكننا ـ مع هذا ـ نعرض الأستاذ مندور صورة من صور الشعر الهامس فيها الأسى وإن لم يكن فيها التهالك ، لشاعر مصرى كبير تحت عنوان « السلو » .

أذن الشفاء . فما له لم يحمد ؟ ودنا الرجاء وما الرجاء بمسعدى
أعدوت أم شارفت غاية مقصدى ؟

برد الغليل اليوم وانطفأ الجوى وسلا الفؤاد فلا لقاء ولا نوى
وتبـــدد الشملان أى تبدد

قذفت بنا الأيام فى غمراتها ورمت بنا فى التيه من فلواتها
فردين لم يتلاقيـــا فى موعد

لا أنت أكرم من أحب ولا أنا سلوا الشدون الناس فى هذى الدنى
تفدين حبى بالحيـــاة وأفتدى

ما كنت أحسب أن أبيت عشية أبدَ الزمان ولا أراك نجية
تحت الظلام ولا أضيق بمرقدى

يأتي الأصيل ولا تراقب وعده ويلى الظلام ولا تحاذر سهده
وإذا انقضى يوم فليس : إلى غد

وإذا رأيتك فى الطريق فمابر يجتاز عابرة ، وطرف ناظر
يرنو لناظرة تروح وتغتـــدى !

عجباً لغابرنا وحاضر أمرنا ! أكذا تمرّ بنا معالم عمرنا
وتزول حتى لا دليـل لمهتـد ؟

هذى الشفاء فهل على بسماتها أثر يشف اليوم عن قبلاتها
فى ذلك الماضى الذى لم يبعد ؟

هذى العيون فأين من نظراتها لسات رحمتها ووحى هناتها
لم يبق من خبر ولا من مشهد !

عليهم بانتظام ، هذا إلى حضور أربعين حفلة تمثيلية بالمجان موزعة على الفصل التمثيلى السنوى . والعجيب فى ألمانيا أن برلين نفسها كانت متخلفة فى الحركة التمثيلية وراء جميع المدن الألمانية الكبرى فلم تكن تفرض هذا الذوق الـ Metropolitan أو العاصمى الذى تفرضه العواصم الأخرى على المدن الأقل شأناً فى المملكة ؛ فكان لمدينة كولونيا مسرحها الشعبى العتيد الذى كانت بلديتها تمنحه سنوياً مبلغ خمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات ؛ وكذلك كان لمدينة ثورن ، وهى من أصغر المدن الألمانية ، مسرحها الشعبى الذى كانت تمنحه بلديتها مبلغ ألف جنيه سنوياً . وقد مثل مسرح كولونيا رواية المعركة لجولدورثى الإنجليزى فربح منها أضعاف ما ربح فى انجلترا .

دمشق فخري

ذكرى تودد فى الحياة سقيمة ... وتعيش فى كنف الهوان يتيمة
وتمر ذاهبة كأن لم توجد

ترى يستطيع الأستاذ مندور أن يحس بهذه القطعة وما ينشى جوها كله من أسى شفيف وهمس عميق ؟ ثم تراه حين نقلب الصفحة الأخرى على سورة هامسة ذات لون آخر ، يستطيع كذلك أن يحس بالصفحتين المتقابلتين ؟

إذن فليسمع هذه المقطوعة الأخرى لنفس الشاعر الكبير ! تحت عنوان « الكون جميل »

صفحة الجو على الزر ... قاء كالخد الصقيل
لمسة الشمس كعين ... لمعت نحو خليل
رجفة الزهر كجسم ... هزه الشوق الدخيل
حيث يمت مروج ... وعلى البعد تخيل
قل ولا تحفل بشيء ... إنما الكون جميل

ونلمح هنا « ألفة » عميقة بين الشاعر وبين الطبيعة ، هى ألفة الحبيب العاشق المتفتح الحس والنفس ، المنهوم القلب والجوارح ؛ ونكاد نلمحه متسع الحدق مفغور الفم ، متوفز الإحساس ، وهو ينشق بل يلتهم ما فى الطبيعة الحبيبة من روح وجمال

قل ولا تحفل بشيء ... إنما الكون جميل

قلها وأنت تستنشق ملء رئتيك ما فيه من روح وحلاوة ، ثم تستريح بنفس طويل ! . قلها فإنها لحظة تجلو لروح ذلك الكون الجميل

وقصة ثالثة ذات لون ثالث ، لا هو بالأسى الشفيف ، ولا هو بالحس المنهوم ؛ ولكنها اللهفة الآسفة ، والحيرة الخاطفة فى « الحلم الضائع » لشاعر من شعراء الشباب المصريين :

أين حلمي وغرامى ونشيدى ؟ ... أين آمالىَ فى الأفق المديد ؟
أين دنيـــاى التى جسَّمتها ... فى خيالى ، فتوارت من بعيد !

ومضة كالبرق صرت فى حياتى ... أيقظت قلبى وحشَّت أمنياتى
وكما يخبو شـــعاع بارق ... لم أجد حولىَ إلا الظلمات

أين عيش كان فى نفسى دفيئاً ... أين أفق كان فى قلبى وضيئا
وحيـاة عشتها فى خاطرى ... قبل أن تولد ، نشوان هنيئا ؟

أهو حلم أم ترى كان عيانا ... عشنا النائم فى دفء هوانا
وسياحات لنـــا فى عالم ... نحن أبدعناه فى الحلم فكانا ؟

أين يا أحلام واديك الجميل ؟ ... أين ظل عند واديك ظليل ؟
أين ؟ فالجـدب يغشى عالمى ... وخريف العمر والصمت الثقيل

أين أين ؟ كل ما قد كان فات ... لم تعد فى النفس إلا الذكريات
وحنين فى الحنايا موغل ... وظلام غارق فى الظلمات

ولدى من هذه الصور عشرات ، ولكن الفراغ محدود ، فبحسبى هذه الصور الثلاث من الشعر المصرى المتخلف قروناً ، لأنه ليس من عمل شعراء المهجر لسوء الحظ !

* * *

وبعد . فليس هذا اللون من الشعر — على تعدد صوره — باللون الوحيد الذى يعجب الناقد الفنى ذا الآفاق الوسيعة ، والنفس الرحيبة . وقد لا يكون أفضل الألوان حين يكون المقياس هو صدق التعبير عن الحياة ، لا إرضاء الأمزجة الخاصة المتأثرة بماض خاص

ومن الذى يقول : إن الهمس والوسوسة فى الطبيعة أصدق من الجأر والجهر ؟ إن بغام الظباء ليس أصل فى الحياة من زئير الآساد ؛ وإن خرير الجدول ليس أعمق فى النفس من هدير الشلالات ؛ وإن وسوسة النسيم ليست أوقع فى الحس من زمجرة العاصفة

والموسيقى ؛ ما شأنها فى هذا المجال ، (وهو خاطر جال فى نفس الموسيقى المصرى المبدع الأستاذ الشجاعى بهذه المناسبة) أنقضى مثلاً على موسيقى « واجنر » وكثير من سيمفونيات بتهوفن وسواه فى سبيل الهمس الذى تلجأ إليه الطبيعة مرة ، كلما لجأت إلى مختلف النغمات والطبقات مرات !

كل مقاييس الفنون تنكر أن يكون الهمس أجل أو أصدق أو أعمق . وإن هو إلا « حالة » من حالات ، بل حالة لا تلجأ إليها الطبيعة والحياة إلا فى فترات الراحة من عناء الضجيج ! وليست الحياة كلها راحة إلا أن تكون حياة مزاج خاص يرى الدنيا من زاوية واحدة صغيرة !

ألا وإن الدنيا لحفية بالهامسين والجاهرين وإنهم لأبناؤها المخلصون فى جميع نغماتهم وطبقاتهم ما داموا صادقين . وإن هذه